

الأديب و المفكر الراحل رمضان عبد الرحمن لاوند

كيف ولماذا نعلن
سقوط الفكر الغربي ؟

الحلقة الثالثة

الحاجة إلى فهم المجاهيل من حولنا هي التي حققت بداية الحضارات . أو على الأقل اسهمت إسهاماً أساسياً في تحقيق هذه البداية. ولا شك أن الكتابة وفن الحكم هما اللذان يؤرخان بظهورهما ولادة الوعي الإنساني بأوليات الوقائع والحقائق.

أما الكتابة وهي مسبوقة بمعرفة أسماء الأشياء ووعي الفوارق القائمة بينها فهي ظاهرة استنارة عقلية ، وعنوان على تفجر الذكاء البشري ، وقدرة فائقة على تنظيم الوقائع والحقائق في الدماغ ، وتوكيد لكفاءة أولية ثابتة في الوصف والتمييز والمقارنة وإعلان عن ظهور ملكة التجريد في العقل الإنساني.

ونحن نشدد على أهمية ملكة التجريد لأنها الظاهرة العقلية الوحيدة التي تستطيع أن تفصل الإسم عن المسمى. فتعتبر الإسم بديلاً عن مسماه وممثلاً لأبعاده المادية ورمزاً للمعنى الذي يدل عليه أو للحركة الصادرة عنه.

والقرآن الكريم نفسه قد اعتبر معرفة الأسماء ميزة يتميز بها الإنسان من دون كل المخلوقات . ولهذا فقد تحدى الملائكة حين تساءلوا في نوع من القلق عن سر سجودهم لآدم ، أن يعرفوا ما يعرفه هذا الآدمي الجديد من الأسماء . قال سبحانه وتعالى في الايات : ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٤ ، من سورة البقرة:

" واذا قال ربك للملائكة إني جاعلٌ في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون . وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين. قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم. قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم

فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون. وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين".

وأسقط في أيدي الملائكة حين استمعوا إلى هذا الكلام الإلهي وأدركوا أنّ في المخلوق الآدمي الجديد قوة ليست فيهم وأنّ له ملكة ليست لهم . فسجدوا امتثالاً لأمر الله تعالى . كل ذلك لأنه يتمتع بقدرة عقلية وبواعية ممتازة ليستا لهم .

وما هي الكلمة إذا لم تكن إسماً لمسمى . أي إذا لم تكن معنى من المعاني التي تميز بها الإنسان من دون كل المخلوقات بما فيها الملائكة الذين " لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون " .

وما يقال عن الكلمة ومحتواها يقال عن التشريع الذي تنتظم به شؤون الناس بعد أن أصبح آدم الواحد الأول عدداً غير قليل من الآدميين بل بعد أن أصبح ستة وحسب ، آدم وحواء وقايل وهاييل وأختيهما.

النظرية القرآنية تشير إلى الظاهرة التشريعية التي تفرضها طبائع الأشياء . لقد نتج عن جريمة القتل الأولى التي ارتكبتها قايل لأول مرة في تاريخ البشر أن أحسنّ القاتل بالحاجة الماسة الى فعل شيء من أجل استمرار البقاء في مسيرته نحو المستقبل. لقد قتل أخاه هاييل تحت ضغط القلق ، القلق الشديد وفي غياب من الوعي الذي يمنحه القدرة على التكيف والرضى والاطمئنان إلى قضاء الله وقدره . ثم أدرك عجزه عن تقرير ما يجب أن يفعله بالجثة المم ددة بين قدميه . وراح يتساءل عما يفعله بها . فكانت عملية الدفن التي هدى إليها ، كما جاء في القرآن الكريم ، رمزا لتكامل دورة الحياة التي تتمّ بين الولادة فظهور التناقضات التي تشدّ الأخ إلى أخيه في الوقت الذي تدفعهما فيه إلى القتال أو التنافس ثم الموت الذي هو نهاية الدورة.

هذه هي أبجدية التنظيم التي لم تلبث من بعد أن تداخلت حروفها وتصورت بها وقائع وحقائق وعلاقات جديدة ثم انتهت بظهور الدولة التي تعني وعياً جماعياً بضرورة التكافل المتبادل من أجل الحفاظ على العيش الجماعي.

الكلمة عنوان على مستوى الوعي.

والدولة عنوان على الحاجة إلى التكافل الجماعي.

وبتمام ظهورهما على صورتيهما الأوليتين كانت بداية الحضارة.

والكلمة حين تفقد محتواها لا تعود شيئاً من أشياء الحضارة وإن احتفظت برمزياتها باعتبارها في الأساس ذات محتوى.

والدولة حين تفقد محتواها لا تعود إطاراً للحضارة وإن احتفظت برمزياتها إلى التجمع الإنساني وصيانة ظاهرة التكافل بين أفرادها أيضاً.

ومن هنا ارتبطت الظاهرة الإيجابية في الحضارة بما في الدولة والكلمة من الفاعلية ... فالناس يصنعون حضارتهم بقدر ما في الكلمة والدولة عندهم من الفاعلية والإيجابية في تحقيق الغرض منهما.

وقد حرص الإنسان منذ البداية على إعطاء الكلمة والدولة فاعلية خاصة حتى في الأحوال التي افتقد فيها هذه الفاعلية . وفي هذه الأحوال جعل من الكلمة والدولة شخصيتين سحريتين خفيتين تحتفظان بتأثيرهما وقدرتهما على القيام بدورهما كإطار للفكر الواعي عند الأولى وإطار للمصالح الجماعية عند الثانية .

هذه الشخصية السحرية الخفية هي التي لجأ إليها الناس الأذكياء للسيطرة على المجتمع ولتوجيه قدراته ولإشباع حاجة الجماهير إلى الطمأنينة على الحياة والرزق والأمن.

وهل كانت رقى الكهان وأسرارهم وتمتاعهم التي يرددونها على مسامع الناس دون أن يكلفوا أنفسهم مؤونة الكشف عما تعنيه كلمات التتمتات والرقى هذه غير آية على ما تتمتع به الكلمة من قدرة سحرية في رأي الناس ؟.

وكذلك الشأن في الدولة . لقد حرصت في أشخاص حكامها بالتحالف مع الكهان على منح نفسها قدسية خاصة ترمز إلى السلطة الإلهية الخفية من أجل الحفاظ على دورها كإطار للمصالح الجماعية.

ولم ينكر الناس على الكهنة والدولة ما كانوا يفعلونه لأنهم كانوا يجدون فيهم الضمانة لمصالحهم وخلصهم في كل دنيا من الدنياوات التي بها يؤمنون.

وكلما كانت كلمات الكهان أشد غموضاً .. وكلما كانت الدولة أكثر تميزاً بشخصيتها المتفوقة الحازمة كانت أشياء الحضارة تتلاحق ويأخذ بعضها برقاب بعض.

لقد كان كلُّ من سحر الكلمة وهيبة الدولة الضمانة المطلوبة لانتظام المجتمع في مسيرة يتكامل فيها الوعي ويتحقق بها النظام.

إذن فالكلمة والدولة ليستا شيئاً من أشياء الترف بل كانتا ولا تزالان ضرورتين تابعتين من تكوين الإنسان الصميمي . وليست الحضارات المتلاحقة منذ فجر الاستنارة البشرية حتى يومنا هذا غير ألوان من المحاولات التي يراد بها تحقيق الوعي المتكامل والأمن المستمر وكفالة الحاجات المعيشية من أجل البقاء في حدود المكان والزمان.

وبالرغم من تطوير الإنسان وشيوع ما يسمى اليوم بالفكر الموضوعي في حياته وسيطرة القوانين العقلية المرتبطة بنظرية السببية التي تنتفي معها عناصر السحر والجن والشياطين والأسرار الخفية ، كما يقول أصحابها ، فإنّ الكلمة لا تزال تحتفظ بسحرها على نحو من الأنحاء وإن اختلفت مظاهر هذا السحر وطرائقه . كذلك شأن الدولة التي لا تزال تحتفظ بقوتها الوازنة الزاجرة رغم محاولات كثيرة للخروج على النظام والانتظام وإن اختلفت مظاهر هذه الهيبة وطرائقها.

أولست البلاغة في الكلام والفصاحة في اللفظ فناً من فنون التأثير السحري على الجماهير؟ أوليست كل الفنون النابعة من الخفاء السحري للقيم الجمالية وغيرها هي نتاجاً على صورة السحر البلاغي في الكلمة ؟
وليس هذا وحسب ..

إن الثابت أن إنسان اليوم الذي بلغ قمة التقنية بكل ما تعنيه من الموضوعية والرفض لقوى السحر الخفية ولا سيما إنسان الولايات المتحدة نفسه ، لا يزال متأثراً بأساليب السحرة لاهناً وراء رموزهم باحثاً عن مصيره في عتماقم وطرائقهم.

في الولايات المتحدة ، كما جاء في الأخبار ، خمسة الآف مكتب لقراءة البخت واستنطاق الكلمات السحرية . وفي إيطاليا وحدها سبع مجلات لقراءة أخبار الناس في خرائط النجوم والكواكب الكونية ، مع العلم أن المنهجية العلمية في هذين البلدين وغيرهما من بلدان الحضارة الغربية ترفض رفضاً قاطعاً كل الاسرار والخفايا المنسوبة إلى الكلمات الغربية والخطوط في راحات الأكفّ وخطوط سير الكواكب المزعومة.

وفي وسعنا أن ندرك أهمية القوة السحرية في الكلمة حين ندرك أنها تعني فيما تعنيه عند كثير من الشعوب ،
الذات الالهية . " في البداية كانت الكلمة ، والكلمة هي الله " ثم " الكلمة تحيي وتميت " .

على أن الرمزية السحرية لم تقف عند الكلمة بل تجاوزتها إلى التصرفات والسلوك . إذ لا فرق بين الكلمة الملفوظة
والتصرف المادي المتجسم في الحركة . وإذا كان هناك فرق فهو في الدرجة والمظهر لا في الطبيعة والجوهر .

" فالكلمة تكتيف للحركة والسلوك والتصرف . أما هذه الأخيرة فهي تجسيم وتمديد للكلمة المكثفة . وفي كلتا
الحالتين تبقى الرمزية السحرية هي المحتوى الحقيقي لكل من التصرف المادي والكلمة المهموسة . "

وتبدو هذه الظاهرة أقوى ما تكون عند الساحر البدائي الذي لا يقتصر في سحره للآخرين على توسل التتمات
وإطلاق العبارات الغريبة بل يتوسل الأشكال المادية والحركات الجسميّة . فهو يصنع تمثالا للإنسان أو للشيء الذي
هو موضوع سحره . ثم يفعل بالتمثال ما يريد أن يفعله بالإنسان أو بالشيء المقصودين في سحره . فإذا أراد الموت لهذا
الإنسان قطع رأس التمثال بالسيف . وإذا أراد حرق الشيء أشعل النار في الشكل الذي يرمز إليه .

كل ذلك كان ولا يزال بسبب ما ترسخ في وجدان الإنسان من وجود قوة خفية وراء مظاهر الحياة والطبيعة تعتبر
صانعة ومدبرة للأكوان كلها .

وإذا كان هناك تطور في مفهوم السحر الخفي للكلمة والحركة فهو في المعنى لهذه وتلك . فهناك سحر أسود ذو
أغراض مخربة وهدامة . وهناك سحر أبيض ذو أغراض بناءة طيبة .

ونشأت حول كل من السحرين حكايات وأساطير ترمز إليها وجاءت طقوس خاصة تعني كلاً منها على حدة .

وفي ضوء هذه الرمزية الممثلة في الطقوس والكلمات كانت العبادات التي تشد الإنسان إلى المعنى الجميل الكريم
والقوة الخفية الطيبة ، وكانت طقوس على نحو آخر ترمز إلى المعنى المنحط والقوة الخفية الحاقدة .

والمعنيان موجودان في القرآن الكريم كماهما موجودان في الكتب السماوية الأخرى أو غير السماوية .

ففي القرآن الكريم يوجد إبليس الذي يرمز إلى التمرد ويتمثل عنوانا على الإغراء المفسد والتخريب للنفوس مقابل الملائكة الذين يرمزون إلى العبادة والطاعة والامتثال لإرادة الله.

ويبرز إبليس وأعوانه ثم الملائكة المقربون على أنهما فريقان يتجاذبان المخلوق الجديد الذي يعاني مأساة دنياه ويخوض معركته معها في سعيه إلى الرضى الالهي وفي تحقيق نجاته . " وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين . " (سورة البقرة الآية ٣٤) .

وبعودتنا الى الآيات التي أوردناها في بداية هذه الحلقة نتبين القصة الكاملة التي ترمز إلى دور آدم وامتيازته ومسؤوليته المترتبة على قابليته لإغراء إبليس وتعثره أمامه ، في الوقت نفسه الذي منحت فيه بين يديه أبواب التوبة والعودة إلى الله . ويتبين تفصيل ذلك في آيات الشجرة وخروجه من الجنة وهبوطه مع زوجته حواء إلى الأرض ومعاناته لمأساة الخطيئة التي هي حصيلة التناقضات في نفسه وفي مجتمعه.

جاء في الآيات : ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩ من سورة البقرة كتكملة لقصة سجود الملائكة المقربين وتمرد إبليس وكفره ما يلي :

" وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين . فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين . فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم . قلنا اهبطوا منها جميعا فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون " .

لكن هذه الصورة الواضحة التي نستبين فيها أطراف المعنى الإنساني وعلاقة الإنسان بالله وقابليته لإغراءات إبليس والتي تتميز بالبساطة لم تلبث حتى ضاعت معالمها في مسيرة التاريخ البشري عند البعض . وقد كانت مسيرة حافلة بالمعجب المغرب من التجربة والخطأ . وكانت حضارات البشر التي هي حصيلة الكلمة والدولة منذ البداية هي اللوحات التي كتبت فيها قصة كل شخصية من شخصيات الشعوب في تاريخ العالم كله .

وبدا للمحققين أن الأساطير التي امتزجت بقصة الخلق الإلهي للإنسان هي الملحمة الأدبية التي كتبت بها مادة التاريخ . كما بدا لهؤلاء المحققين أن هذه الاساطير قد لبست لبوس الأوضاع والظروف المادية والمعيشية لكل قبيلة أو لكل مجموعة من القبائل . فقرأوا على تباين في صحة القراءة ، الحكاية الطويلة المعقدة للمفاعلات القائمة بين الأساطير من ناحية وبين الظروف الجغرافية والمناخية وأشياء العيش من ناحية أخرى ، بما فيها الزراعة وطرق العيش والتجارة والتقاليد الناجمة عن كل منها.

ومن هنا كانت الأسطورة المادة الأساسية لثقافة الناس مع التباين الظاهر بين كل مجموعة ومجموعة منهم تبعاً للظروف والقوانين الخفية التي لم تعرف حتى اليوم.

وبقيت الكلمة والدولة الإطارين اللذين يرمزان إلى الأسطورة ويستوعبان حاجات الناس وأفكارهم النابعة من أعماق نفوسهم.

من هنا كان حظ شعب كالشعب اليوناني من الأسطورة أغنى كثيراً من حظ شعب آخر كالشعب العربي في صحرائه أو في الواحات الكبيرة المتاخمة لها ولغيرها من صحارى الشرق الأوسط كما في العراق وسوريا ومصر. ولكن شخصية الصحراء تبقى أشد وضوحاً وأصدق دلالة.

لقد كانت مهمة الإنسان هي العودة إلى اكتشاف القصة الحقيقية للخلق وإدراك أبعادها كما وقعت حوادثها تماماً، وقد عانى الكثير من المتاعب من أجل هذه العودة .

وليس تاريخ الحضارات في بعض معانيه غير تاريخ لهذه العودة التي تعني في مفهوم المؤرخين تحرر الإنسان من الخوف والجهل والخيال المليء بالتهاويل ليحقق حالة الوعي التي يتصل عن طريقها بالحقيقة الإلهية الثابتة .

كما أن تصنيف الحضارات وتعيين شخصية كل منها همامن أهم الغايات التي يتوجه نحوها المؤرخون.

ولا شك أن الاستنارة بالملاحظات المسجلة في هذه الحلقة وفي الحلقتين السابقتين هي المدخل الطبيعي إلى مثل هذه الدراسة . وهكذا نقرر الحقائق التالية :

(١) أن الكتابة والدولة كانتا البداية الأولى لصنع الحضارة.

٢) أن الكتابة والدولة ترمزان إلى المعرفة والأمن والتكافل وإشباع الرغبات الأساسية.

٣) أن الكتابة والدولة قد رمزتا إلى السحر حيناً طويلاً من الدهر ثم أخذتا تتحرران منه وإن لم تحققا هذا التحرر تحقيقاً كاملاً.

٤) الأسطورة هي المادة الثقافية الأولية للرمز السحري الذي ظهر في مفهوم الدولة والكلمة المكتوبة أو الملفوظة وفي الحركة والسلوك والتصرف .

٥) تاريخ الحضارات هو تاريخ لمحاولات الخروج من مرحلة السحر الأسطوري.

٦) الحضارات متميزة في شخصياتها بمحوظها من الأسطورة وارتفاعها إلى مستوى الوعي الكوني الذي يشدها إلى الحقيقة الإلهية.

٧) الحضارات تصنّف في ضوء ما حققته من الوعي من ناحية والتحرر من الأسطورة من ناحية أخرى.

في ضوء هذه الملاحظات نستطيع أن نتناول بالدرس السليم كلاً من الشخصية الحضارية العربية والشخصية الحضارية الغربية وأن نتعرف من ثمّ إلى الأسباب التي تدفعنا لإعلان سقوط الفكر الغربي الذي قدمناه به حلقاتنا هذه.